

فى حراسة والدى !

ومن طرائف هذه الفترة أنه عندما كان يدخل أبى مكتبه بعد الظهر كانت تدخل وراءه قطة كان يعتبرها قطته . وكانت أول ما تقوم به هذه القطة أنها تقفز فوق مكتبه وتنتظر منه أن يرحب بها . ثم كان يفتح لها درجا من أدراج مكتبه . فكانت تقفز إلى هذا الدرج وتنام فيه . وإن طال الوقت بغير أن يعيرها اهتماما كانت تقفز من داخل الدرج إلى أعلى المكتب وتقرب من يده التى يمسك بها القلم وهو يكتب ثم تخط بقدمها الأمامية على هذه اليد محاولة أن يترك القلم ويلتفت إليها . فكان أبى يربت يده على رأس القطة وظهرها كنوع من الملاطفة فكانت بعد ذلك ترجع إلى الدرج وتستكمل نومها حتى تعود إلى نفس المبادرة بعد ذلك بساعة أو ساعتين . وكان يحدث ذلك كل يوم أثناء عمله بعد الظهر .

وأذكر أنه كان دائما على مكتب أبى - أينما كان هذا المكتب - جهاز راديو يسمع فيه النشرات الإخبارية المختلفة التى تذاق خلال اليوم الواحد ، فكانت قراءة الصحف اليومية والاستماع إلى النشرات الإخبارية من عاداته اليومية .

كانت علاقتي بأبي في أيام الكويت تحولت إلى صداقة حقيقية ،
والذى ساعد على ذلك كانت طبيعة الحياة هناك ، فهي هادئة
للفأية . ورغم أنه صحيح كان كثير العمل المتواصل فإنه كان
لا ينزعج إذا قاطعه أحد أثناء عمله . فكان من الممكن على أن
أدخل وأسأله شيئاً فيرفع رأسه عن كتابه وقراءته ويرد على أو يناقشني
فيما أريد ثم يستأنف عمله بعد خروجي ، وكان تدخلني لم يحدث .
فلم أسمع منه أبداً كلمة « أنا مشغول الآن أجلى هذا الموضوع
لوقت آخر » . لم أسمع منه هذا لا في الكويت ولا قبلها ولا بعدها ،
وكان عمله كأنه شريط في ذهنه يوقفه عندما يريد ويشغله عندما
يريد . ثم إنه كان يستمر في عمله بدون أن ينزعج إذا فتحنا
التلفزيون مثلاً في غرفة المعيشة المجاورة له ، أو استقبلنا ضيوفاً
أنا وأمي ، فكل ذلك لم يكن يؤثر على عمله أبداً . أذكر أننا
بعد عودتنا إلى مصر من الكويت كانت غرفة المعيشة - وبها
التلفزيون أيضاً - مجاورة لمكتبه ومكان عمله . وكانت أمي
كثيرة المشاهدة لبرامج التلفزيون ولم يضايقه ذلك في عمله أبداً
بل بالعكس كنت أشعر أن ذلك يؤنسه ، فكان لا يجب الوحدة ،
بل يجب أن يشعر بأن أسرته حوله .

وفي أيام الكويت كنت أتذكر مواقف صعبة بيني وبين أبي
في أيام أسبانيا وهي الأيام التي كان أبي « يربينا » فيها أنا وأخوتي .
أظن أن أسوأ سنوات مرت على علاقتي بأبي كانت عندما كنت
في سن الرابعة عشرة إلى سن السادسة عشرة . وكنت في هذه

الفترة تلميذة بالمدرسة الألمانية فى أسبانيا . وكان أبى خلال هذه السنوات بالذات شديداً جداً معى ، إذ كان يمتنعى من كل شىء تقريباً إلا المذاكرة . فلم يكن يريد أن أتزاور مع صديقاتى ولا أن أحضر حفلات أعياد الميلاد ولا حفلات المدرسة إلا فى القليل النادر . وكان أيضاً يغضب إذا أطلت فى مكالمة تليفونية ، فكان يقول بمناسبة التليفون أنه اخترع لتبادل الرسائل وليس للثرثرة . وكان دائماً يقول لى إننا نحن شىء (أى المصرين) وهم شىء (أى الأجانب) ولا يجب أن نصيح مثلهم . فلم أفهم ذلك فى هذا الوقت أبداً لأننى كنت أرى أن أصدقائى وزملائى فى المدرسة والمدرسة كانت مختلطة - محترمون ولم أر عيوباً فيما يفعلون ، ولكنه كان مصمداً على أن يعيش حياة مصرية تماماً فى أسبانيا . وأحدث ذلك نوعاً من العزلة بيننا أنا وأختى وبين أبى الذى كان يمثل لنا الرقيب المستمر . فكانت مناقشاتنا حادة ومطولة ، وكنت دائماً أخضع فى آخر الأمر لما يريده لأنه كان فى موقع القوة ، ثم إن كلامه كان دائماً مقنعاً فى آخر الأمر فهو لم يأمر بشىء بل كان يدخل معى - أو مع أختى - فى مناقشات طويلة بخصوص أصغر الأمور . ولا أتذكر أننا سمعنا منه كلمة واحدة تهيننا أو تجرح شعورنا ، فكان بطبيعته مهذباً وحساساً جداً يراعى دائماً شعور من يواجهه ، سواء أكان من أولاده أم من الغرباء . وكثيراً ما كانت تحضر أمى هذه المناقشات ولكنها لم تتدخل أبداً حتى لا تنشئ بين أفراد الأسرة أحزاباً تفرق بينها .

وكان أبى يطبق هذه الشدة على أخى أيضا ، فلا يتركه كما يشاء بل كان يريد أن يراه دائما جالسا يستذكر كتيبه . وأذكر كيف كان أبى يقول لأخى : « يا ابنى شوف مستقبلك . ذاك . لا تضيع وقتك » . وكان أخى يرد عليه : « هو مستقبلى هذا لا نهاية له أبدا ؟ ثم متى يبدأ هذا المستقبل ؟ أليست كلها حياة واحدة متواصلة ؟ فكلمة « المستقبل » هذه كانت فى رأيه بمثابة اللغز ولكنه لم يكن يعلم فى هذا الوقت أن عمره قدر له أن يكون قصيرا وأنه لن يرى « المستقبل » الذى عمل الكثير من أجله .

كان أخى وهو صغير يمل من المذاكرة الزائدة فكان يأخذ مجلة من المجلات المخصصة للأطفال ويضعها تحت قمصانه ويدخل الحمام ويقراها هناك على حرته . فلاحظ أبى أن ابنه كان يمضى وقتا طويلا جدا فى الحمام حتى انكشف الأمر .

استمر أخى مع ذلك فى قراءة هذه المجلات فى الحمام ، إذ كان يخفيها وراء المرآة التى فوق الحوض . وهناك طريقة أخرى كان يهرب بها من المذاكرة الزائدة على حدها ، وهى أنه كان يرسم على مكتب المذاكرة فيظن الجميع أنه يذاكر ، والحقيقة كانت أنه أحيانا كان يرسم وكان رسمه جميلا وذا طابع خاص ، وبقيت هذه الهواية تلازمه حتى توفى رحمه الله فكان رسمه جميلا سواء بالقلم الفحم الأسود أو بالألوان ومازالت رسوماته لدينا

ولكننا نتجنب رؤيتها لأن رؤيتها تذكرنا بأبشع ما مر بنا عليه في حياتنا الأسرية وهو وفاته المبكرة .

وكنا كثيراً ما نلفت نظر أبي إلى أن بعض الأسر المصرية في أسبانيا كانت تمنح أولادها الحرية الكاملة ليعيشوا حياة الشباب هناك فكان يقول : « نعم ، إنني أريد ذلك . ولكن من قال إنني أريد أن تصيروا مثلهم ؟ كل أسرة حرة في تربية أولادها ، وأنا أوجهكم بالطريقة التي أراها ستفعلكم فيما بعد وأتمن رأس مال ممكن أن تحصلوا عليه هو رصيد العلم والمعرفة الذي تحصلان عليه في سنكم الحالية .

وكان أخي يلاحظ أننا لا نعامل أبداً مثل باقي الشباب الذين حولنا ، ويذكرني أننا عندما كنا في مصر ومازلنا أطفالاً كانوا يجعلوننا نذهب لننام في الثامنة مساءً وندخل السرير ويطفأ النور ثم يقفل باب الغرفة لو كان في البيت زوار . وبينما كنا نحن ننام كان باقي الأطفال الذين في سننا يسهرون مع أهاليهم حتى ساعات متأخرة من الليل ، وكنا نحن الاثنين الوحيدين ممن نعرفهم ننام في ميعاد مبكر حيث كانت تصمم أمي بالذات على ذلك دائماً . وبما أننا لم نستطع أن ننام في هذه الساعة المبكرة فكنا نقرأ تحت غطاء السرير ببطاريات ، كنا قد أتينا بها لذلك الغرض . وعندما كشف أبي وأمي هذا التمرد على النظام لجأنا إلى نظام آخر وهو أن ندخل السرير في الثامنة ونقرأ بمعرفتهما ساعة تقريبا قبل النوم ثم نطفئ النور . وأرضانا هذا النظام .

وأذكر أن قراءتنا أنا وأخى كانت قراءة موجهة ، أرى أن أسمى
وأسمى كانا يختاران كتباً تناسب سننا ، ثم نختار نحن مما اختاراه
هما . وظلاً يختاران لنا قراءتنا تقريباً طوال مدة الدراسة المدرسية ،
وأذكر بهذه المناسبة أنني مرة من المرات في سنوات « التربية
الشديدة » التي ذكرتها تلمذت على أبي في توجيهاته القرائية ،
وكان قد حذرني بالأمر أقرأ الروائيين الروس قائلاً إن وقت قراءة
أعمالهم سيأتي قريباً . أذكر أنني انزعجت بيني وبين نفسي ،
وقرأت بدون أن أعلم هو ، كل ما استطعت الحصول عليه من
روايات دستوفيسكي وتولستوى بالذات ، وأنا ما بين سن الخامسة
عشرة والسادسة عشرة . واليوم عندما أسترجع هذه الفترة من
عمرى أتمنى أن أكون قد سمعت كلام أبي وتلميذاته في هذا
الوقت ، لأن مثل هذه الكتب بها شخصيات ووصف لمواقف
لا يستطيع أن يفهمها قارئها إلا بعد الحصول على درجة معينة من
النضج لأنها غالباً ما تفرع صغير السن أو تجعله يفهمها خطأ
وهذا ما حدث لي في الماضي .

عندما أسترجع هذه المناقشات وهذه المواقف اليوم أجد أن أبي
كان على حق ، وأنه كان يواجه مسؤولية كبيرة في تربيته ، فكان
عليه أن يوجهنا وأن يربي فينا سلوكاً وقيماً نكون بها شخصياتنا
وفي نفس الوقت كان يحاول أن يعدنا ما قد يضرنا من عادات
الشباب الغربي . والنتيجة كانت أنه أنشأ فينا حباً واحتراماً نادريين
لمصر وكل ما فيها .

ولم تستمر هذه الشدة في التربية إلا بضع سنوات وفهمانا بالتدرّيج ما يريد منا وفهم هو موقفنا أيضا فالتأثير بينه وبيننا كان متبادلا وإيجابيا ، أذكر - على سبيل المثال - أنني عندما حصلت على ما يقابل في مدرستي هناك الثانوية العامة في مصر اقترح على أبي أن أدخل إحدى الجامعات الأسبانية ، وأن اتخصص سواء في الأدب الأسباني أو التاريخ . كان ردى يومها أنني كنت أريد أن أدرس « بمدرسة التراجمة » بجامعة جنيف بسويسرا . فاندهرش وقال : « وتعيشين وحدك هناك ؟ » قلت : « نعم ، إنني أجد عدة لغات وأحبها ، ثم إنني أحاول الاعتماد على نفسي » .

أذكر تماما أنه لم يناقشني كثيرا في اقتراحي ، وسألني أذا أتركه يفكر في الأمر . ومرّ أسبوع ومرّ أسبوع آخر على اقتراحي هذا ومن حين إلى آخر كنت أسأله : « هل فكرت في الأمر ؟ » وكان رده : « نعم ، مازلت أفكر فالأمر ليس بسيطا ثم إنه مكلف للغاية » .

وبعد أسبوعين أو أكثر بقليل استدعاني ووجدت معه مظروفين كبيرين من جامعة جنيف . كان قد كتب ليطلب من هذه الجامعة الأوراق التي تعرفنا « بمدرسة التراجمة » هذه ثم متطلباتها وفتح المظروفين الواحد تلو الآخر وشرح لي ما فيهما ، وطلب مني أن أراجع الأمر وحدي وأن أفكر فيه جيدا وأنه سيقف معي أيا كان قرارى . وصممت على رأيي فرضي بالأمر .

كانت الدراسة هناك ستغطي خمسة فصول دراسية أى سنتين

ونصف ، وكان على جميع المتقدمين أن يحضروا وينجزوا امتحانات دخول تتطلب الكثير من المذاكرة . وحقيقة أنه ساعدني كثيرا في تحضير هذه الامتحانات خلال الصيف .

وجاء وقت السفر . وكانت ستقام امتحانات الالتحاق في مدينة « فريبور » السويسرية . وسافر أبي معي . كنت أظاهر بالقوة وثقة النفس ولكنني كنت أشعر بخوف كبير في داخلي من التجربة كلها ، ولم أتصور بوضوح كيف أعيش بعيدا عن بيتي وأسرتي التي كانت بالنسبة لي بمثابة الحماية إلى حد كبير . أذكر ان الامتحانات كانت كثيرة العدد ، وكنا سنمتحن صباحا ومساءً : (أى بعد الظهر) . وأذكر أن الجامعة هناك كانت قد خصصت ل إقامة مع باقى المتقدمين لهذا الامتحان . فأوصلني أبى إلى هناك رحجز لنفسه مكانا في فندق قريب . وكان في كل صباح يمر على ليرافقنى إلى مقر وقاعة الامتحان . ثم أدخل القاعة وكان هو يتظرني في خارجها يقرأ الصحف أو كتابا أحضره ، وعندما خرج كان يسألنى بالتفصيل عن الأسئلة وعن إجاباتى ثم كان رافقنى إلى مطعم وتناول الغداء فيه معا ، ثم يرجع معى مرة اخرى إلى قاعة الامتحانات . وأذكر أنه لم يعد أبداً عن هذه قاعة ، فكنت أراه بمجرد خروجى . ثم كان يرافقنى إلى مطعم تناول العشاء ويوصلنى إلى حيث السكن الجامعى الذى أبيت فيه يعود مرة أخرى فى الصباح الباكر حتى تمضى امتحانات اليوم الثانى ، وكانت أيام الامتحانات خمسة . وأذكر أنني قلت له

أثناء هذه الأيام : « ألا نلاحظ يا أبى أننى الطالبة الوحيدة التى يصاحبها أبوها هنا ؟ إن كل من حولى يجىء وحده والكثيرون منهم فى سننى . » فكان يقول : « معلش ، هم شىء ونحن شىء ، فأنا أشعر أن امتحاناتك هذه كأننى أنا الذى أؤديها . »

ونجحت فى الامتحانات والحمد لله . ورافقتنى أبى إلى جنيف وتعرفت على الجامعة ومقرها (وكان هو يعرفها منذ زمن طويل) ودفع لى مصاريف الدراسة ، ثم ذهب معى إلى المدينة الجامعية ، وتسلمنا الغرفة التى كنا ستكون مقرى أثناء إقامتى هناك . ثم ذهب معى إلى بنك وفتح لى حسابا وحدد المبلغ الذى كنت سأستلمه منه فى أول كل شهر . ثم عرفنى على عميد كلية الآداب بجامعة جنيف إذ كان من أصدقائه ، ثم عرفنى بأستاذين آخرين بنفس الكلية ، ثم جلس معى ونظمتنا « الكورسات » المختلفة التى كنت سأحضرها خلال مدة إقامتى هناك ، ثم اشترى لى اشتراكا موسميا حتى أسافر بالقطار إلى زيوريخ لكى أمضى نهاية كل أسبوع مع أهل أُمى ، ثم عرفنى على الشوارع الأساسية فى جنيف وأحضر لى خريطة لها . واتفقتنا أننى سوف أمضى عطلة عيد الميلاد (الكريسماس) وإجازة الصيف مع الأمرة فى البيت فى أسبانيا وكانت تذكرتى تذكرة ذهاب وعودة . ثم قال لى : « والآن نذهب لنحدد ميعاد عودتى إلى مدريد » . وانكمش قلبى وأذكر أننى قلت : « هكذا تسافر وتركنى ؟ لماذا لا تبقى معى

مدة بداية الدراسة على الأقل ؟ » فضحك وقال أن مهمته قد انتهت وأن أعباء عمله تنتظره في مدريد .

وجاء يوم سفره ورافقته إلى المطار ومن آخر الأشياء التي قالها لي قبل مغادرته هو أن أتصرف دائما مرفوعة الرأس وألا أقوم بأى شيء قد أحجل منه بعد ذلك وأن يوفقني ربي . وبقيت في المطار حتى سمعت من خلال « الميكروفونات » أن طائرته غادرت المكان . ثم امتلكني خوف شديد وعدت إلى غرفتي في المدينة الجامعية ، وأذكر تماما أنني نمت بدون تناول وجبة العشاء في هذا اليوم إذ كنت أشعر بخجل يفوق التصور معني من أن أنزل المطعم وأدخله وحدي ، وأنا أعرف تماما أن كل من فيه غرباء عليّ .

ومرت هذه السنوات بسويسرا على ما يرام وعندما أتذكرها الآن ألاحظ أنني كنت خلالها شديدة مع نفسي وأنا وحدي أكثر من شدة أبي على وهو معي .

وعندما سألته بعد مضي سنوات طويلة على هذه الأحداث عما إذا لم يكن يخاف على عندما تركتني وحدي في سويسرا ، وعاد إلى أسبانيا فقال إنه كان خائفا بطبيعة الحال ، ولكن يجب على كل أب وأم أن يتركا أولادهما لكي يتصرفوا ويعتمدوا على أنفسهم فمهمة الوالدين أن يؤسسوا تربية أولادهم ثم يتركوهم يكونون شخصياتهم ، فالخوف الزائد الظاهر على الأولاد يضعف

شخصياتهم ، ويجب أيضا أن يستند الوالدان إلى إيمانهم بالله وأن يوكلا له أمر أولادهما .

وتصرف أبى مع أخى مثل تصرفه معى فغادر هو وأمى أسبانيا متجهين إلى الكويت ، وكان أخى مازال فى المرحلة المدرسية فتركاه وحده لكى ينال شهادة الثانوية من مدرسته فى أسبانيا . كان أبى رحمه الله كثير التوكل على ربه ، وكان لذلك لا يرى أن هناك أمرا مستحيلا فى الدنيا ، فكل شىء كان ممكنا مادام الإنسان مؤمنا إيمانا حقيقيا . وكان طبعه لذلك السبب أيضا هادئا وتصرفاته فى منتهى العقلانية والتوازن ، وأنا لا أتذكر أنه فى مرة من المرات فقد أعصابه واشتبك فى عراك مع أحد أو « شتم » إنسانا ، فلم يكن هذا من طبيعته أيا كان الطرف الذى يواجهه أو الإنسان الذى يقابله .

وغادر أبى وأمى أسبانيا وذهبا إلى الكويت وكنت أنا فى جنيف ، وبقي أخى فى أسبانيا وكان قد قرر أخى أنه يريد دراسة الطب فى مصر بعد ذلك ، وكان قد اتخذ هذا القرار وحده وحققه بعد ذلك بالفعل .

الأسرة مع الدكتور عمود مكي والفقان محمد صبرى في إحدى مقاطع مبارياته

